EL-VÂKİ' FÎ MİRÂTİS'S-SÛRA NAHVE KİRÂ'ETİN SÎMYÂ'ÎYETİN CEDÎDE Lİ'S-SÛRÂTİ'L-MER'ÎYE

الواقـع في مرآة الصـورة

نحو قراءة سيميائية جديدة للصورة المرئية

خيـرة مكـاوي

Khaira MEKKAOUİ*

Abstract

"Will solve the Picture… ...soon replace humans," - Raul Vangem - from the book of the revolution of everyday life - This letter the face of Raul Vangem Referring important and smart to the nature of the times in which we live, the nature has imposed a lot of labels, including the (Postmodern) or time (postmodern) and based this time on the basis of network media, the Internet and the symbols of globalization, which is working to erase meaning, and the abolition of individual differences, national and religious, and dissolved all in one pot, replace the photo shop the truth, and what remains there is a difference between art and life, between life and representation, Representation at the time of post-modernism is where the knowledge of reality, because reality is not only what appears in the picture , or is a pale copy of the image.

الملخص

"سوف تحل الصورة ... قريبا .. محل الإنسان"

– راؤول فانجيم – من كتاب ثورة الحياة اليومية – بهذا الخطاب وجه راؤول فانجيم إشارته المهمة والذكية إلى طبيعة العصر الذي نحياه، وهي طبيعة فرضت الكثير من التسميات من بينها (عصر ما بعد الحداثة) أو (زمن ما بعد الحداثة) ويقوم هذا الزمن على أساس شبكة الإعلام، والإنترنيت ورموز العولمة التي تعمل على محو المعنى، وإلغاء الاختلافات الفردية والقومية والدينية، وتصهر الكل في بوتقة واحدة، تحل فيها الصورة محل الحقيقة، فلا يبقى هناك فارق بين

* Dr., Abdulhamid b. Bâdîs Üniversitesi, Edebiyat Fakültesi, Arap Dili ve edebiyatı Bölümü, Müsteğânım-Cezayir. (mekkaouikheira@yahoo.fr)

الفن والحياة وبين الحياة وتمثيلها، فالتمثيل في زمن ما بعد الحداثة هو مكمن معرفة الواقع، لأن الواقع ليس إلا ما يظهر في الصورة، أو هو نسخة شاحبة من الصورة.

الأبعـاد السيميائية الجديدة للصـورة

1- إستراتيجية الإيهام Le Simulacres : يبين جون بودريار Jean Baudrillard، أن شبكة

الإعلام والإنترنيت ورموز العولمة تعمل على صناعة واقع مجتث عن أصوله عبر مسألة "الإيهام" أو "السيمولاكر Le Simulacres"[1] وهو لعبة قوامها التمويه والتدبير والاحتيال، يقف وراء صناعة نماذج مقولبة Stérétrype تعبر عن الواقع بوسيلة إيهامية وتضليلية، حيث تقتطع منه الكاميرا نماذج تجتثها من واقعها الموضوعي لتتحول إلى صور إلكترونية وصور إشهارية، تمارس ضغطا على المشاهد بفعل الإغراء والاجتذاب النفسي إلى نوع هذه السلع.

ولاستراتيجية الإيهام في الصورة الإلكترونية أو الاشهارية أهداف واحدة موحدة:

أولها: الصناعة والإنتاج وإيهام العرض والاستهلاك الذي يؤدي إلى كسب الأرباح واحتكار شبكات التجارة وتسييرها وفق جهات سياسية واقتصادية لها سلطة القرار.

ثانيها: الاقتدار على الآخر، وذلك بالتحكم فيه وفي لغاته، ورموزه وصهرها في ثقافة هذه الجهات باسم العولمة التي تهدف في لغتها الاصطناعية إلى تدمير الاختلاف وطمس المغايرة لحساب مطابقة وهمية وائتلاف قسري.

2- الصـورة، واقع فوق واقع[2]

[1]– ينظـر

Baudrillard (Jean), la précession des simulacres, revue « Traverses » N° 10 Février 1978, P3-37

[2]– ينظـر

Baudrillard (Jean), la Précession des simulacres ; Idem, P3

هذا ما يؤكده المفكر الفرنسي، جان بودريار Jean Baudrillard في سياق حديثة عن تفوق الصورة في حياتنا المعاصرة وسيطرتها على الواقع إلى درجة أنها خلعته، وأخذت مكانه، فلا مجال اليوم للحديث عن الصورة المحاكية للأصل إنما الحديث هو حول المحاكاة الكاملة أو التامة، حيث الصور المحاكية هي ما يشكل العالم، بل إنها تتمتع بالأسبقية على الأشياء نفسها.

لم يعد ثمة كما يعبر بودريار أثر للواقع أو لصورته المعبرة عنه في قياسات مصغرة، لقد انمحى التمايز بين المفهوم (الصورة) والدال (الواقع) لصالح تطابق ليس بالتطابق الفلسفي أو الفني، وإنما تطابق يبني واقعه الفوقي على خيالية فائقة تقدمها التكنولوجيا بما منحت من أسباب صناعة النماذج والصور، وقولبة الأنماط والعلامات.

تقدم التكنولوجيا (فوق واقع) قائم على سيكولوجيا الحرب (والأسلحة النووية والدمار الشامل) مثلما صنعت في الخمسينيات من القرن الماضي الصحون الطائرة Ouni للسيطرة نفسيا وإعلاميا على الخصم في الحرب الباردة، كما تعمد التكنولوجيا ومن ورائها صانعوا القرار في العالم إلى التلاعب الجيني الذي يغير من نسق الخلايا وهندسة الحمض النووي ADN ليصنع وحوشا فرانكنشتاينية وكائنات فوقية بغية التأثير على العالم والسيطرة سيكولوجيا على العالم الأقل تطورا.

لا يعبر هذا الـ (فوق واقع) عن واقع أخر ضمني ولا عن مفهوم ما إنما يعبر عن نفسه فهو وبلغة التفكيكي "جاك دريدا Jacques Derrida" المتردد اللايقيني Indécidable في صيغة (لا هذا) و(لا ذاك)، لا دال ولا مدلول، لا واقع ولا مثال، لا حقيقة ولا مجاز، لا لفظ ولا معنى، ليتردد المعنى بين الإيجاب والسلب في انفتاح على الخيال والغرابة.

هكذا ينفتح عصر التصنيع على نماذج لا مرجعية لها ولا واقع، ولا مثال، إنما صور صناعية ورموز وعلامات إيهامية منتجة وموزعة، إنها قائمة بدون معنى ومؤذنة بانهيار التأويل.

يعطي بودريار مثالا عن Disneyland الذي يسعى إلى تطوير فوق الواقع الأمريكي المنسجم المتصالح مع نفسه، المغمور بالقيم والفضائل، Disneyland عالم من القصور والرسوم والألعاب والأنغام، أبدعها "والت ديزني" وحولها إلى واقع فائق أو فوقي يدمر مرجعيات الواقع الأمريكي المتكون من الفوارق الاجتماعية، والمتناقضات الحياتية والسلوكية والمعتقداتية، والمشاكل الأخلاقية كالمخدرات والبطالة والفقر، والكوارث البيئية وغيرها من بنيات هذا الواقع.

وفي مقابل Disneyland الواقع الفوقي الذي يبعث على الفرحة والبهجة، هناك السينما وشبكة الإنترنيت بأجهزتها السمعية البصرية والتي تبعث على الرعب من خلال ما تبثه من صور عن الخطر الذي يهدد القارة الأمريكية خطر آت من الفضاء الخارجي، حيث تهاجم كائنات غريبة، أو مذنبات نارية القارة الأمريكية مثل أفلام: Armageddon أو Independance dary أو Aliens

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأفلام لا تقدم إلا صورا للهجوم على القارة الأمريكية، والقارة الأمريكية وحدها وكأنه لا وجود للقارات الأخرى أو هي موجودة افتراضا، وإن وجدت في نسيج الصورة فلا يوجد منها إلا تلك المعالم لحياة صحراوية، رعوية وبالتحديد عربية، فقيرة وجاهلة، لا يملك أبناؤها إلا الهرب والاختفاء، والاحتماء بأمريكا التي تعمل بكل ما تملك من صناعة وتكنولوجيا، وقوة على الدفاع عن سكان الأرض بما فيهم العرب والمسلمون على وجه التحديد حتى يصبح من العسير التفريق بين أمريكا والقارات الأخرى بين الأمريكيين وغيرهم، بينهم وبين الآخر الذي يسعون إلى احتوائه وتذويبه في نسيج واحد أحادي هو نسيج العولمة.

هكذا تلعب التكنولوجيا وصناعة الصورة دورا في نمنمة الواقع واجتثاث الحدث عن جذوره بتصنيع أنماط وصور سابقة على الحدث، تحركها وتوجه مصيرها كما تشاء.

يعمل الفوق واقع بدون علل أو نتائج مثلما تعمل الظواهر في نشوئها وزوالها، إنه يصنع أحداثا افتراضية Virtuels سابقة عن الواقع، تتركب، تنتج، تتوزع لتشكل قصة النص، وتنتقل سيناريوهات هذه الأحداث من الواقعي إلى الخيالي، ومن الحقيقي إلى التضليل ومن القانون إلى الخرق .

3- الواقع الافتراضي Virtuel [3]

"الافتراضي هو أفق الواقع"[4]، الواقع عند بودريار ليس إلا شكلا مقنعا ومصنعا أفقيه هو فوق واقع، أو واقع فائق قائم على التجانس والعددية والعلملياتية والمعلوماتية، وتصنيع مثل هذا الواقع دافعه الرغبة الإنسانية في التحكم فيه، فلقد حاولت النظريات العلمية والفلسفية والأدبية تفسيره، وكان في كل مرة يفلت من مجهر الفحص، كما لو كان سرا أو غموضا عليا عن الكشف والاكتشاف، صنع الفكر

[3]- كوفمان (سارة)، لابورت (روجي)، المدخل إلى فلسفة جاك دريدا – تفكيك الميتافيزيكا واستحضار الأثر، تر: إدريس كثير، عز الدين الخطابي، ط2، إفريقيا الشرق 1994م، ص106.

[4]- Baudrillard (Jean), Mots de passe, Fayard 2000, P54

الإنساني لنفسه واقعا افتراضيا، وفائقا يتحكم فيه ويسيره وفق رغباته ومطامحه، وجاء هذا الواقع الافتراضي بديلا عن الواقع الفعلي، وأثرا عنه تماما مثلما هي العلامة أثر عن الشيء تحمله وتمحوه على حد تعبير جاك دريدا.

يعمل الواقع الافتراضي في تقديمه للخطاب المرئي أو للصورة بمبدأ اللايقين أو اللاحتمية، فمسار الخطابات أو الصور احتمالي Aléatoire وبداية الخطاب بدايات، ونهاية الخطاب نهايات، وكأن الواقع الذي كان في مرآته مزهوا بكماله وتمامه وانعكاسه الحرفي، تحول مع ثورة الشاشات المرئية والتكنولوجية إلى شظايا شديدة الانكسار والانفصال إلى ذرات متناثرة ومتنافرة، أصبح الواقع وقائعا من الاحتمالية واللايقينية، أصبح عرضا يكتنفه الزوال والتبدل والتفرع والانقسام.

يعبر بودريار عن هذه الحالة من هدم الواقع وسرابية الحدث بـ"الجريمة الكاملة" التي تحطم الغيرية والآخر"[5]، ففي هذه الافتراضية للواقع لا صدق ولا كذب، ولا خير ولا شر، ولا تناقض ولا تماثل، إنها تطابق العالم مع ذاته، وائتلافه مع صورته وتشابهه مع هويته.

إن الجريمة الكاملة عند بودريار هي استنساخ الواقع في صيرورة لانهائية، بحيث تكون ملامسة الأشياء كالابتعاد عنها، والاقتراب منها كالنفور عنها، ويصبح من العسير التفكير في الواقع لأن الواقع في ثورة المعلوماتية هي الذي يفكر فينا كما لا يمكن "التفكير فيه كواقع حقيقي وإنما كبنية خارجة عن مدارها ومنظور إليها من عالم آخر كوهم أو خيال[6].

4- السلطة ومنطق الصورة المصنعة

إن ما يصطلح عليه بودريار بالتلفزة الحقيقة (TV. Vérité) في "نسيان فوكو"[7]، يمكن أن نتمثله في اصطلاح الحاسوب الحقيقة (Micro-Vérité) حيث الحقيقة صناعية لا تأملية، منظورة لا تمثيلية أنها تصنع الواقع ولا تصفه، تقولبه ولا تعكسه، فعبر سيناريو الكاميرا – الحاسوب والحقيقة زالت كل المراكز وتهاوى الرقيب على الهوامش، وأصبحت السلطة غير ظاهرة شكلا ووظيفة، تعمل في حقل الواقع الفوقي بوصفها السلطة/الصناعة، السلطة/الرغبة، السلطة/الإغراء، وتهدف إلى إنتاج واقع بدءا من شروط مندمجة يضعها الواقع الفوقي، وينتج بها واقعا ليس إلا حركة الإيهام والصور المتكاثرة والمتفرعة والمترابطة،

[5]– Idem , P 78

[6]– Baudrillard (Jean), la pensée radicale, ed sens et tonka, paris 1994, P. 12-13

[7]– Baudrillard (Jean),oublier foucaut, valilée, 1977

والمبنية على أساس التفاعل بين الباث والمتلقي بواسطة الحاسوب والتقنية، إنه واقع يفلت من كل قراءة موضوعية، وتحديد نظري حيث لا تقع الإشارة على واقع واحد أو محتمل وحيد وإنما على نسخ من إنتاج المواد المحسوسة واقتصاد خاص يضاهي الاقتصاد العام.

إن السلطة بالمعنى الذي ذهب إليه بودريار "تلتحم باللاشعور، وهيروغليفية الخطابات، ومخيالية الممارسات: السلطة سر وإبهام"[8] إنها سر وإبهام لأنها تنسحب بوصفها مركزا، تتهاوى بوصفها كتلة واحدة وحيدة، تتحول إلى انزراع للعلامات السلطوية، وتشتيت وتفتيت للدوال المركزية في الحقل الاجتماعي الاقتصادي، تصير السلطة بقايا سلطوية، تموت ليعقبها ميلاد آلات سلطوية، صور ونسخ وأنماط متجذرة في الواقع ومجتثة عنه، ملتحمة بمرجعياته ومتجاورة لها.

لقد قضت الكاميرا على الأولويات السلطوية، وفي سيناريو الأدب التفاعلي أو الصورة التفاعلية، تساوى الحاكم والمحكوم وتحولت الثغرة النصية والجمالية بين المبدع والمتلقي إلى ثغرة تقنية ومشهدية يملؤها كلاهما في زمكانية عجيبة تجمعهما حيثما كانوا وأينما وجدوا.

أصبحت العلاقة بين المبدع والمتلقي قائمة على الانتقاء Sélection حيث تختار الصور والنماذج وتركب وتنمط بالتفاعل والشراكة، يعلن الباث والمتلقي كليهما الاعتراف التالي، الاستباق الآتي: "لنفكر في التجربة المدهشة اتجاه اكتشاف عالم واقعي آخر، مماثل لعالمنا الواقعي"[9]

تدخل الكاميرا بوصفها شريكا فعالا وفاعلا في محاولة تحقيق هذه التجربة، لكن من وراء الستار فهي وسيط مخفي بين الباث، (المنتج، المستهلك)، والواقع، والمتلقي (المستهلك والمنتج)، فلا وجود للمنتج وكفى، وللمستهلك وحسب، وإنما في عصر العولمة تتلاحم المتغيرات وتقترب المتنافرات، وتزول الثنائيات لصالح (لا هذا) و(لا ذاك)، (هذا وذاك) في الآن ذاته.

تختفي الكاميرا في الوسائط المرئية لتصبح عند الطرفين: الباث والمتلقي هي الحقيقة عينها، أو هي الواقع نفسه ويعتبر هذا الإخفاء دليل الصناعة في إبداع الفوق واقع، وفي تذويب الحدود بين المتقابلات، فالمشاهِد مشاهَد، والفاعل منفعل، واللاعب ملعوب به بالضرورة على حد تعبير هانس جورج غادامير، كل هذا الحساب اقتصاد صناعي، قائم على تصنيع الأنماط والصور وتسويق الإيهام في

[8]– الزين (محمد شوقي) العرفان وسر السلطة، ميشال دوسارتو، وميشال فوكو، المجلة الفلسفية الجزائرية (بالفرنسية)، عدد 1 ، 1997، ص55-65.

[9]– Baudrillard (Jean), la Pensée radicale, Idem, Page 13

إستراتيجية لا تعترف بالمراكز والهوامش، أو الباث والمتلقي، والرائي والمرئي، أو الفاعل والمنفعل، إنه عصر انهيار المراكز وسقوط الثنائيات، يمكن أن نضرب مثالا على ذلك ما يقدمه الإعلام من أفلام وصور إيهامية بقرب وقوع الكارثة كحرب نووية تعتبر رأس مال تقني وصناعي، تتداوله الشعوب، عبر السينما وشبكة الإنترنيت، ويقوم دعاة هذه الحرب على بناء فوق واقع بأساليب الردع والإقناع لتترجم على مستوى مخيال الشعوب إلى حقائق وإلى قلق جمعي، وكل ذلك للوصول إلى نقيض هذه الحرب أي إلى الاستقرار والأمن، فالحصول على الغايات في عصرنا يتوسل بالنقيض، وتحقيق المطامح يتم بهواجس الكارثة والأزمة والزوال، يشهد العالم في عصرنا نوعا من "(تسارع التاريخ) و(تسارع المجتمعية) Socialisation، ليس نحو الانفجار الخارجي Explosion عبر الثورات والتمرد والعصيان المدني، وإنما نحو الانفجار الداخلي Implosion وتوزيع شامل لأساليب الردع والإقناع ولرؤوس أموال إيهامية دائمة التداول والانتشار في الحقل الاجتماعي"[10].

يمكننا أن نسمي عصرنا هذا عصر الإيهام، أو عصر الصورة، أو عصر الإيهام عبر الصورة، لأن العلامة التي كانت متكونة من الدال والمدلول في الفكر الكلاسيكي، يعمل عصر التصنيع على تفكيكها وعلى تدمير مرجعها وذلك بإلحاق الواقع بالخيال، وإسقاط مبدأ المحاكاة (الواقع، التمثيل) أو (الواقع / الصورة)، واعتبار الإيهام الحقيقة المتداولة جماهيريا، والمقولبة شعبيا، إنه "صورة من غير هوية، لا يحيل إلى أي نمط خارجي، وليست له أصالة جوهرية"[11].

هكذا تختزل العلامة بين الدال والمدلول، وتطمس لصالح مفهوم جديد للواقع هو الواقع المصنع المنتج ولصالح إيهام لا يحاكي الواقع، وإنما يقولبه وينمطه في صور يوزعها الإعلام تحت سلطة الردع والإقناع الفاعل بجاذبية الرغبة والإغراء.

[10]- ينظر الزين محمد شوقي، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى 2002، ص 219 - 220

[11]- Mario Pernicola, Icônes, Visions, simulacres, In « Traverses » Idem, Page 48